## شعرية الخطاب الصوفي بين جدلية المبدع والمتلقي

**أ. أخضري عيسى**
**جامعة الجلفة**

إن الشعر جهد إنساني خلاق غايته تعزيز الجمال وهدفه خلق الأشياء من جديد، كما خلق الله العالم من لا شيء ، وتَمكُن الشاعر من أدائه يتيح له انطلاقا من تجربته الشخصية، اصطناع رموز بواسطة إمكانات دلالية، وفتح أفق خاص للآداء اللغوي، هو عرض فني لمعطى معرفي معروف في صياغة جديدة، ترجمة لسنن جمالية ذاتية أو رؤيا خاصة، فالأسلوب الرؤيوي " تنحو فيه التجربة الحسية إلى التواري خلف طابع الأمثول الكلية، وهذا يؤدي إلى امتزاج الرموز في تجليات عديدة [1].

ولما كانت اللغة تفصح عن صاحبها في صورة شاملة لحياته، كانت كلماته الحية تسري فيها روح رؤياه فتعطيه وجوها متعددة، كل وجه هو إيماء إلى المعنى الماورائي، فالشعر وسيلة التعبير و " ماء حياة اللغة ... مهمته إثارة اللذة الفنية وإذا كان لا يخاطب عقولنا فلإنه يخاطب عوطفنا[2].

وهذا الغوص في اللغة يمكننا من اكتشاف قدرات صاحبه، ومدى مهارته في كشف الوجود والإفصاح عن العالم وتجلياته، وخلق فعالية جمالية مغايرة من منطلق ذاتي، وهذا ما يعرف بالشعرية، وهي فجوة أو مسافة توتر تهتز لها بنية اللغة على مستويات عديدة، تصورية تركيبية، إيقاعية... بالخروج من إطار اللغة إلى إطار التصور والرؤيا والانفعال [3] والظاهر من التعريف أن لكل عصر شعريته الخاصة، تحكي الإبداع الفني في نتاجه الأدنى، وإيضاحا لما تعني الشعرية هاته إشارات توجزها وتضيئها [4]

- الشاعر الخلاق هو الذي يبدو في نتاجه نبضة حية في الماضي، وفي الوقت نفسه كأنه شيء مغاير لكل ما عرف به.

---

(1) د-صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،عبدة غريب،د.ط 1998ص 147.

(2) يوسف الخال : الحداثة في الشعر ، بيروت ، دار الطليعة . ط1 1978 ص 23 .....27.

3 ينظر كمال أبو ديب: في الشعرية ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ط1 ، 1978 ص 122

4 ينظر أدونيس (علي أحمد سعيد): سياسة الشعر، بيروت ، دار الآدب ، ط1 1985 ص 25 ، 26، 27.

- الممارسة المادية للسان تفرض عليه أن يكون عارفا المعرفة العليا، متقنا لتاريخيه الكلام الشعري ولكيفية الكتابة الشعرية.
- المجاز التعبيري هو الطابع العام للكلام الشعري إذ له قدرة جعل اللسان يقول أكثر مما يقول،يُدخل إلى مجال التصور الإنساني أبعادا تقود الإنسان نحو أبعاد أخرى وفضاء أخر.
- الكتابة الشعرية ممارسة باللسان في حقل لساني، اجتماعي ثقافي متناقض معقد، هي علاقة مع مجموع المجال البشري القارئ الذي يوفره المجتمع.

فالكتابة الشعرية " هي نموذج في ماء التراث ... تواصل في المد الشعري، حتى حين يكون ضديا، ولا يمكن هذا التواصل أن يكون فعالا يغني الإبداع الشعري العربي، إلا إذا كان كلحظة خاصة في الممارسة الإبداعية"[1].

لما كانت التجربة الصوفية رحلة يبحث عن الجمال المطلق، عن سر الوجود، سفر عميق إلا الذات البشرية، كانت التجربة الفنية هي الأخرى تبحر وتنقب عن كلمات توازي ذلك الارتقاء الروحي، فينشأ بذلك دافع عميق للبحث عن لغة معرفية من طراز عرفاني، هي خلق فريد يميز الخبرة الفنية، هذا الخلق حتما لن يكون من قوانين وتعاليم سابقة فقط، بل هو أيضا محصلة تجربة حية ، يبحث فيها الصوفي عن تجسيد لما يغمره لكنه ظل يحدده دون أن يرسم ملامح ذلك الإتحاد والاتصال بالوجود الأول، ولأنه يعلم أن المحاكاة لصور الطبيعة يُفقِد قيمة الموقف، يعمد إلى الشعرية فيرسل منها طيفا يسري في اللغة حتى لا يُفقِد كنه الأشياء باعتبارها – أي الشعرية – لا تهدف إلى الإقناع بقدر ما هي افتعال حساسية وتواصل مع الحياة والكون.

يتحقق للصوفي بذلك شعرية غيرت الكتابة العربية، تجاوزت لغة الظاهر وحطمت الأعراف والمصطلحات، حتى توافق ذلك الموت عن الظاهر من أجل الحياة في الباطن الكوني، فخلفت نشوة للغة تتطابق مع نشوء التجربة، والارتواء من أقداح المجاز الخلاق، تهادت له اللغة وبلغت النشوة الشعرية أَشُدَهَا" [2] وتتبع شعرية الكتابة الصوفية من ذلك التوحد وامّحاء فواصل المتناقضات، هي في هذا الصدد تقيض للشعرية باعتبارها

---

[1] ينظر أدونيس (علي أحمد سعيد): سياسة الشعر ، ص 15 ، 16.

[2] ينظر أدونيس (علي أحمد سعيد): الصوفية والسريالية ، بيروت ، دار الساقي، ط1 1992 ص 159، 160.

فجوة التوتر لكنه تناقض ظاهري يعكس ذلك التوتر للمكون الصوفي، فجوهر التجربة هو العيش في مسافة توتر حاد تذوب الذات في شوقها وابتهالها وعظمة عذابها وقلقها هي إذا " وهج شعري يتألق أصلا في لحظة الاعتراف بالفجوة : مسافة التوتر ، الاعتراف بوحدة أصلية لذَاتٍ انفصمت وانشقت نتيجة انفصام الذات إلى ذاتيين بينهما فجوة هائلة، وتنكشف بذلك العلاقة الضدية في الكتابة التجريبية التي اختفت وأصبحت حلولا في الكتابة المذهبية التي تطرح النظرية وتلغي التجربة، وعليه فالكتابة الشعرية هي الكتابة التجريبية"[3]

كانت نظرة القارئين الأولين للخطاب الصوفي على أنه خطاب ديني، لم يتوسموا فيه البعد الجمالي، ولما بدأ الاهتمام بالشعرية عادوا إلى تلك النصوص التي لم يُذهِب عنها الدهر ماء الحياة الذي يسري بن سطورها، ولم يُنفِذ التهميش الطاقة الشعرية الكامنة فيها، ولما وضع القارئ يده على هذه النصوص كان يصبو على صنع مفاتيح تأويل، يفتح له بابا في عتمة الخطاب الصوفي، وليس من المنطقي أن يقرأ الصوفي قراءة واعية مجردة بل يجب أن يقرأ " بحرارة الرؤيا، لا ببرودة الفكر، بنشاط المنطق التخيلي يجب أن يقرأ لا بجمود المنطق العقلي وما هو واقع في دائرة الرؤيا بالرؤيا يؤخذ"[1].

وحين يبدأ القارئ في الممارسة التأويلية، تفتح له أبواب ومساحات لا حدود لها للابتكار والتواصل، وإدراك المتعة في إعادة إنتاج العمل الأدنى، فالقارئ في هذا الظرف لن يجهد نفسه في البحث عن المثلث الدلالي الصوفي الذي أنشأ الصورة، بل يخلق لنفسه نسبا جديدا موازيا بين الدال والمدلول، وعلى هذا فالخطاب الصوفي هو نتاج تلاحم وتركيب بين الباث والمتلقي.

وهناك أبعاد ثلاثة تحدد مدى فعالية القارئ في إنتاج معنى النص [*]

- فالخطاب الصوفي بوصفه هيكلا مشكلا من كلمات يسمح للقارئ بالمشاركة في صنع المعنى.

---

[3] ينظر كمال أبو ديب: في الشعرية ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1 1987 ص 102، 103.

[1] د ساسين عساف: الرؤية والرؤيا( دراسات في الفكر النقدي الأدبي) ،بيروت دار الفكر اللبناني،ط 1991ص 60.

[*] قياسا على الأبعاد التي حددها (أيزر) في مفهومه للنص وتطوره، ينظر عباس محمود عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب العربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط1 1996 ص 27، 28.

- القارئ لا يتعامل مع النص على أساس بنائه الشكلي ولا على أساس المضمون، بل يتعامل مع الصورة الذهنية وسلوكيات الإدراك التي تَنبَّه لها القارئ.
- الخطاب الصوفي يجسد في ذاته أهمية القارئ، ويحدد القارئ الضمني في خلال ما يحويه من سنن وأعراف جمالية وفنية محصورة في مخيلة الصوفي، إذا فهو يؤثر في إنتاج أي نص ويوجه مساراته .
- وهذه الإشارة إلى العلاقة الجدلية بين المبدع والمتلقي، وجوانب جماليات التلقي التي تكون في الغالب غامضة، فقد عدها (أناتول فرانس) حوارا متكافئا بين القارئ والكاتب، أما (فكتورهيغو) فقد عدّ الحوار مبارزة يصعب التنبؤ بنهايتها ولقد تعددت الرؤى حول علاقة المبدع بالنص وبالمتلقي كرؤية (جاكوبسون) الممثلة في المخطط التالي.

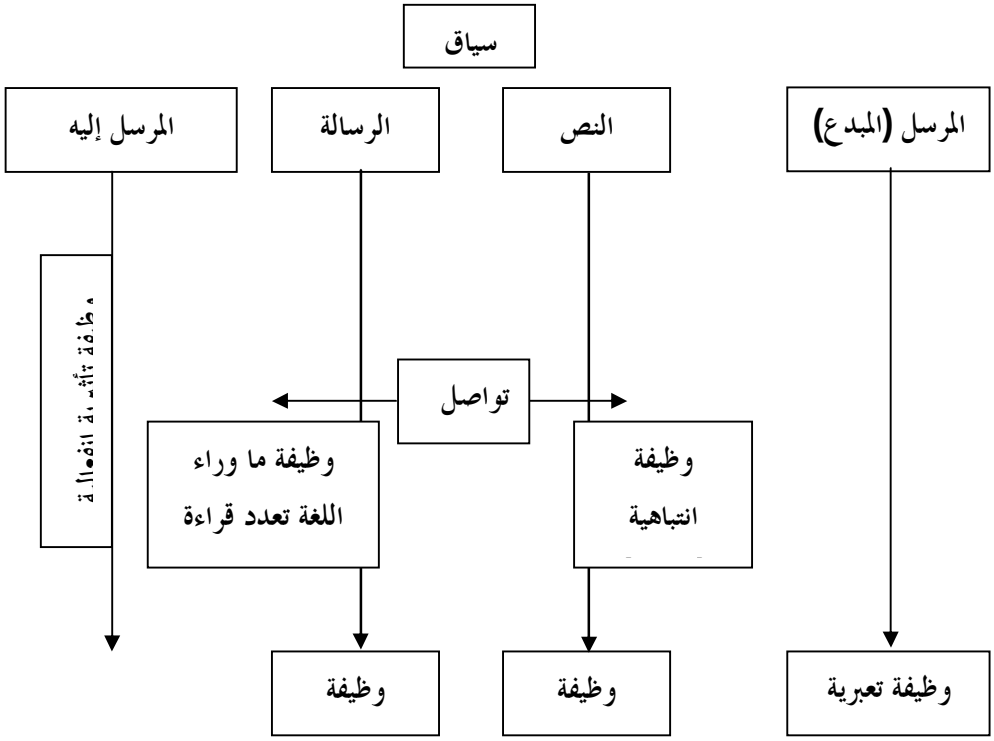


علاقة المبدع بالمتلقي من خلال النص

اللغة هنا وسيلة التبليغ عن المادة الجوهرية التي يريدها المرسل الذي يستند إلى وظيفة تعبيرية، أما النص أو الرسالة أو السياق فمن جهة انه تواصلي إفهامي يحيل إلى وظيفة مرجعية تعود على الباث، ومن جهة أنه مشفر ووظفيه شعرية تعمد إلى ما وراء اللغة، وتعدد قراءات النص الأدبي، يعود على المتلقي الذي تكمن وظيفة في التأثير والانفعال.

وقياسا على الخطاب الصوفي بوصفه خطابا مفعما بالشعرية فهو في تلك الشفرات العرفانية والرموز الذوقية جسد رغبته في التواصل وجعل نصه اعتباطيا مفتوحا أمام التأويل ومنح للمتلقي سلطة بعده كي يتبناه ويمنح له حياة جديدة، ويخلقه بوجه جديد وعلى هذا فشعرية تلقي الخطاب الصوفي إيجابية لأنها تساهم في إنتاجه وكشف قيمته الإبداعية " ولذلك فاستحضار المتلقي من قبل الباث أمر لا جدال فيه حتى في الحالات التي يعاني فيها المبدع عبء تقييد ما لا يقيد أصلا من لطائف روحانية تفوق إمكانات اللغة ذاتها"[1].

وعلى هذا الأساس تباينت مستويات تلقي الخطاب الصوفي لأن جانبه الفني المتجلي دلالة على جانب الديني المستتر، فهو إذا محصلة جدل متعلق بالأدب مع خطابات ثقافية ومواجهات إيديولوجية.

**قائمة المراجع**


1- أدونيس (علي أحمد سعيد): سياسة الشعر ، بيروت ، دار الآدب ، ط1 1985الصوفية والسريالية، بيروت ، دار الساقي، ط1 1992

2- آمنة بلعلى : تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، الجزائر، منشورات الاختلاف 2002.

3- يوسف الخال : الحداثة في الشعر ، بيروت ، دار الطليعة . ط1 1978.


[1] آمنة بلعلي : تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1 2002، ص 67.

4- كمال أبو ديب : في الشعرية ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ط1 ، 1978 .
5- ساسين عساف: الرؤية والرؤيا ( دراسات في الفكر النقدي الأدبي) ، بيروت دار الفكر اللبناني، د ط 1991.
6- السعيد بوسقطة : شعرية النص بين جدلية المبدع والمتلقي الموقف الأدبي، العدد 371 دمشق ، اتحاد الكتاب العرب، آذار 2002.
7- صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، عبدة غريب ، د.ط 1998.